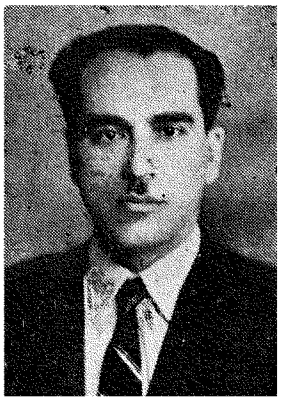

مثل غربي من

تضامن الفلسفة والشعر

بقلم: خليل الهنداوي

ما أقرب هذين العالمين أحدهما من الاخر ! وما أنأى هذين العالمين ! .. أحدهما عن الاخر ! فهما قريبان متجاوران حين يتصلان بالعاطفة الانسانية الشاملة التي تتلاقى على محورها الافكار والعواطف ، وعند ذلك يشتركان في جعل النفس البشرية موضوعهما الواحد الاثير .

وهما ، الى ذلك ، بعيدان متنافران ، حين يضيق كل واحد منهما العالم الذي يأوي اليه ، فالشاعر حين يجعل مداره عاطفته الضيقة الذاتية ، والفيلسوف حين يتخذ الفكرة الجافة ، غير الملونة مذهبة هما في اعتقادي — كائنان لا يجتمعان ...

كثيرون من الشعراء جعلوا الفلسفة اطار شعرهم ، واتخذوا منها مادة توسع مدى عواطفهم ، فالانسان — عندهم — مجمع الانسانية ، والنفس الواحدة تتراءى فيها النفس البشرية . سواء في ذلك من أعطوا الشعر الوجداني أو الشعر التمثيلي ، أو القصصي .

وكثيرون من الفلاسفة أرادوا ذلك ، واقتحموا عالم الشعر ليسلخوا عن فلسفتهم الجفاف ، أو ليدلوا على أن الفلسفة ليست بعيدة — كما يتصور الناس — عن العاطفة .

ولا أذهب الى أن هؤلاء وهؤلاء قد نجحوا في هذه المحاولات . ولكني أذهب بتأكيد الى أن كثيرين من الخالدين في الفلسفة تركوا مقاطع فلسفية لا ينقصها من الشعر الصافي لون ولا لحن ... وهذا نيتشه الفيلسوف الجرماني استطاع أن يخرج — في كتابه الخالد (هكذا تكلم زرادشت) بمزيج شعري فلسفي ، يحار الناقد في تعليل حياته وخلوده ... وما خلوده عندي الا لانه امتزج فيه العقل والخيال والشعور امتزاجا لا استبداد فيه .

وكثيرون من الخالدين في عالم الشعر تركوا في شعرهم لمحات أطلت على عالم الحقيقة ، فكانت في الفلسفة أحيانا من تأملات فلسفية كثيرة .

وقديما قالوا — ان الفلسفة التي تخلو من العاطفة فلسفة جافة لا تقيم وزنا للقيمة الانسانية ، فكأنهم اشترطوا في الفلسفة ذاتها أن تستمد من العاطفة ما يجعلها حية ، ملونة ، كما قالوا — ان الشعر الذي لا يهدف الى فكرة حقيقية ، أو رمزية يضيع صداه سريعا ، ويفر أثره من القلوب سريعا ...

وهذا الامتزاج يعود اليه سر ابداع الشعراء والفلاسفة .

في الشعر العربي جرب ابو العلاء أن يعطي هذا التمازج في شعره التأملي . ولكنه كان تمازجا غير متناسق بكميته ولا متلائم بغايته . فالفكر عنده غلاب على العاطفة . وهو يجيء في أكثر الاحيان عاريا ، والشعر يأبى ان يخرج عاريا ... واذا استباح الفن العري في نماذجه فانا لشعر يأبى على الخواطر ان تخرج عاريه ... ولذلك أعرضت آلهة الشعر عن أبي العلاء ، ولكنها لم تجحد يوما ان فلسفة ابي العلاء تهيمن عليها عاطفة انسانية شاملة صادقة تنفح الروح في كثير من أشعاره . فتهزنا بذلك هزا .

وما كان ابو العلاء لينقصه الفكر ، او الشعر ، او العاطفة . ولكن كان ينقصه الخيال الملون الذي يعطي روعة الظلام العميق مع رقة الشفق الاحمر الشفاف .

وقد استطاع ان يظفر من هذا المزيج المتناسق ، الملون ، معاصر لابي العلاء ، هو عمر الخيام الذي كانت له فلسفة خاصة لم يعبر عنها بلغة الفلسفة ، وانما عبر عنها بشعر تسامى لحنا ومعنى ولونا . وقد استطاع هذا الشاعر الساحر ان ينقل اليك ، بالوانه الساطعة ، أقتم فكرة فلسفية حزينة . فالموت عنده عالم يتحرك لا يعرف السكون . والرفات الذي تحطم وحال ترابا تبقى ذراته حية ، غاصة بالعاطفة واللذة .

وهناك مثل من التضامن بين الفلسفة والشعر يقدمه الينا رجل كان فيلسوفا قبل ان يكون شاعرا . هو (غيو) الذي عاش عمرا قصيرا لم يتجاوز به الثالثة والثلاثين سنة ... ولكن هذا العمر القصير — مع ذلك — لم يستطع ان يحول دون تفتح هذه العبقرية في أول ربيعها .

وكأن احساسا غريبا في — لا شعور هذا الشاعر — كان يوحي اليه بأن يستبق الزمان ... فهما عدوان متنافسان ، كلاهما يسرع الى غايته قبل ان تقطع عليه الطريق .

ولعل طبيعة هذا الرجل كانت مزيجا رفيعا اقترن فيه الخيال بالحقيقة المجردة . والفلسفة بالشعر . ولعل هذا المزيج أحله منازل العبقرية ليدل على ان الشعر والفلسفة هما — كما قدمت — كائنان يتحدران من أصل واحد ، وينزلان في مكان واحد ، فأعطى تأملاته الفلسفية العالمية التي لا تزال موضع احترام في العالم الفلسفي ، وأعطى نظراته الاجتماعية القيمة ، ولمحاته الفنية العميقة . ولم ينس ان يلبي نزعته الشعرية فأعطى ديوانه الصغير : (شعر فيلسوف) .

نظمه في الرابعة والعشرين من عمره ، عمر التهاب الشباب والخيال ، ولكن عقله ، مع هذا ، كان المهيمن على ديوانه .

ففيه جملة اهـــواء وعواطف يتصرف فيها العقل بهدوء .

ولكل قطعة فكرتها السامية الفلسفية ، ولهذا أراك تصد عن شعره اذا كنت عدو التفكير ، لا تؤمن بالمدرسة الشعرية التي تجد ان الشعر لا يخرج عن كونه فكرة او غاية . ولكن هذا لا يمنعنا ان نقول ان شعره ، وان كان ثقيل الجناح ، كثيف الخيال ليست له تلك الرقة الخالصة ، ولا الغلالة الناعمة ، فهو مثال الشعر المفكر الذي يأخذ الفكرة العارية ، ويكسوها اللباس البسيط ، واللفظ البسيط .

والديوان بمجموعه يمثل روح الفلسفة الهائمة القلقة التي تستقر حينا في واحة اليقين ، وحينا تضطرب في منازل الشك كأنها فراشة هائمة . وهذه الروح ـ بالرغم من قلقها ـ تندفع بقوة لاتعرف التردد نحو الوجود ، ترشف من جماله وتتحد معه اتحاد المطمئن . وتراها في سبيل هذا الاتحاد ، لا تبالي المخاطر ، ولا يثنيها عن مرادها شيء . ومن ذا لا يشعر بذلك القلق الذي كان يدفع هذه النفس لتبحث وتنقب في الجزائر النائية ، والعوالم الخفية . ومن ذا لا يحس حنان هذه الروح التائهة التي تود العودة الى وجودها الاول كما تعود قطرة الندى الى اصلها . ووراء هذا السعي . والطموح فكرة تدعو الى تضامن اجزاء الوجود ، واتحاد هذه الاجزاء ، حتى يصبح الوجود قيثارة واحدة ، تتجاوب أوتارها في لحن واحد ، وتتلاءم ألحانها في غاية واحدة .

والآن لنستمع الى مقطوعة لهذا الشاعر ، تمتزج فيها الفلسفة بالروح الشعرية الصافية ... عنوانها :

(رحلة تنقيب)

« لما كنت طفلا كنت أحلم بالاسفار
والرحلات المضيئة عبر البحار
وتحت ناظري الحالم كانت تتوالى شطآن جميلة
طافية على الاوقيانوس في ضباب الفضاء
اريد ان امشي ، وان اعمل ، وان أغرس حياتي
بكلتا يدي ... مرتاحا للنضال ، سعيدا بالالم .
سخيا ببذل قوتي المضطربة
التي أحسها تجري في قلبي بدمي .
واذ ذاك لاح لناظري أفق أحلى ، ولكنه اكثر فرارا عني من هذه المرافىء المتذبذبة القائمة على أرض مجهولة حيث كان يحملني اليها حلمي المندفع .

خيل الي انني ارى الحقيقة البعيدة تلمع . ورحت أنسى كل فكرة انسانية حين اشرق على قلبي أمل لا ينتهي ... لأتبع قبسها الالهي الساطع في الظلام .

سريت طويلا ، والوعد الخالد يبسم لي دائما في اعماق السماء ، وذهبت ، على جبيني فتوتي الشاحبة ، ورأسي يضطرم نارا بين يدي .

ولكن أملي كان ينمو مع ألمي .

قلت ـ (ان الالم يعطي قيمة الانسان)

فدعوت الالم لجسدي المتعب .

وصحت ـ أيتها الحقيقة ! اريدان اكون جديرا بك .

مضت الايام ، وحييت في أحلامي ..

والافق الذي كان مضيئا قد اظلمت نواحيه ... ولم يعد لي قوة ، ولا اقتدار ، ولا ايمان ..

حتى الامل نفسه ذوى في قرارة نفسي .

والآن ماذا تبقى لي ؟

هل أحمل من تلك التخوم غصنا مهصورا ، او حطاما منثورا ؟ أو زهرة تعلقت بها عيني ، في مكان وجدت فيه أفكاري شعاعا من أيامي الذاهبة؟

لا ... لا يقين حين تستقر النفس.

السماوات ظلت في صمتها الخفي.

ولكنني أحسست ، من قلب الظلام اللانهائي ـ بان شيئا يدخل في قلبي النشوان ... فيدميه ... »

ولنستمع الان الى مقطوعته الموسومة (بالتضامن) فهي تكاد تكون خير ما يمثل ـ عند هذا الشاعر ـ عناق الفكرة الانسانية الاجتماعية مع العاطفة الشعرية ...

(اتبعنا طريقنا سربا ...

وكانت أشجار السنديان الجرداء تبسط أذرعها الممدودة لريح الشمال .

ولا تزال زعزع من العاصفة تدوي في الأجواء .

والسحب المجنونة تتواثب فوق رؤوسنا ، كطيور ضخمة تحملها الرياح .

كنا نمشي متعبين ...

والطريق أمامنا وعر قفر بدون انتهاء كالحياة ... لا نزال نصعد ...

وفجأة أومض شعاع على الاعالي ، اضاء لنا الربع الخالي ، كأنه سطع في قلبينا .

كم رعشة شبيهة بهذا الشعاع ـ في اللمحة القصيرة ـ تنطلق من الطبيعة الينا ! ومن الاشياء الى انفسنا !

فاذا كل شيء ، في أعيننا ، يتبدل ... وكل شيء يغني ويضحك ،

لقد شعرنا ، كأنما الضجر والملل يخرجان منا .

فتساءلت : الا اية قدرة غريبة تشد علينا بقبضتها ؟؟

ان شعاعة واحدة يمكنها ان تغير قلبا ، وتبدل حياة .

وهذا العقل الانساني الذي تشوقه المصادفات حيث تريد ليس بسيد نفسه .

ان عقلنا شبيه بهذه الشجرات التي تحنيها الريح ، دون أن تدري من أمرها الا الانحناء .

انني لست بقادر ـ ما خفق قلبي ـ على ان اسيطر في لحظة ما على فرحي والمي ... بل لست ـ والسفاه !

أملك مسيل دموعي .

اجل ، لكي تسيل دمعتي ، أو تلمح بسمتي ينبغي ان تتجاوب الاشياء .

ينبغي ان يكون في العالم الواسع دمعة خرساء تستجيب لالمي ، وشعاعة تطل على فرحي .

لقد كنت قبلا محتقا لضآلة نفسي وعدم قدرتي على الاستئثار بنفسي في عالم مستقل ، وحيدا مع فكري ، حرا كآلة .

ثم قلت بنفسي (لماذا هذه الكبرياء الفارغة ؟)

ان قصيدة ابدية تمر ، وتحيا في هذا الوجود ، وانا فيها مقطع ، بل كلمة ولا اصل فيها الى بيت واحد .

ولكن ما هي ؟ اذا وجدت روحا يسكرني بهذا الايقاع الالهي المنتظم ؟

تراني أرن مع هذا الكل ...

وما عسى يجديني اعتقادي بهذه الكلمة العذبة (الحرية) ؟

وانا أؤثر عليها كلمة اعذب (هي التضامن) .

الحياة عندي تعاون ، ولحن مشترك ...

وما أجمل ان تشعر بهذه الكائنات الحائرة ، ترتعش للاتحاد ، كما ترى الذرات المذهبة مرتعشة في موجة النور الواحدة .

انا لست شيئا وحدي ... وكل شيء لا شيء بدون الكل .

فالطبيعة كها تتجاوب مع كل كائن .

وعلى صدرها الواسع اتحدنا كلنا ، الانانيين منا والمتعاونين . فانا اكاد أحس الوردة تتفتح في قلبي ، وأشعرانني أشم هذه الزهرة مع هذه الفراشة .

كأنما ليس هنالك متاعب مفردة ،ولا لذائذ أنانية . فكل شيء يتآلف ويتماسك . التعب والسرور ، يركض كلاهما الى الاخر .
ومشاغلك مشاغلي ... ومشاغلي مشاغلك .

وهكذا أريد ان يكون ما يعاودكم يعاودني ، وان تكون سعادتي مشتقة من سعادة الكون . وأن أحمل في قلبي المحدود ـ الانسانية كلها ـ ولو مزقت قلبي .

فالفرح كلما ازداد عرضا ، زاد عمقا .
ولا بد ان يأتي يوم لا يفرح فيه انسان وحده ، ولا يبكي وحده .
بل كل شيء يتمازج ، ويتآلف ، من مسرات ، ومتاعب ، وأفكار ... دون ان يكون وراءها في النفس الا صدى خالد واحد .

حيث ترى الناس كلهم يؤلفون بأيديهم المتماسكة سلسلة كبيرة ، كل حلقة فيها تهتز للثانية ... والالم يخف ايلامه ، اذا اجتمعت عليه القلوب .
ألا فلنوسع من مدى نفوسنا !

ولنترك أفئدتنا تتفتح لكل رعشة من رعشات هذا الكون الفسيح !
ولنحمل نصيبنا من هذه الآلام التي تنوء الكائنات بأثقالها !

ولننل حظنا من تلك اللمعات البعيدة التي تطفو عليها كأنها الآمال ... محطمين من حياتنا أسوار الانانية البغيضة ...
ولنعكس في انفسنا كل شعاع يرقى الينا من الارض ، وينحدر علينا من السماء ...
ولنكن عين الطبيعة الصافية ...»

هذه مقطوعة شعرية . تخدم غاية الفلسفة . ترمي الى أن التضامن هو الاساس الصحيح لبناء المجتمع المكين في البيت ، والمدينة ، والامة ، والانسانية كلها ... وتبين أن الانانية هي العامل الاول في تهديم الكيان . ونرى الشاعر يسلك ـ الى غايته الاجتماعية ـ طريقا لا يخلو من المعابر المظلمة والخمائل المعطرة ... ولا يخلو مرة ان يكون طويلا ماولا ...

ولكني ـ كما قلت ـ يظل هذا الشاعر حيا ، لانه كان مزيجا من فكر متوقد ، وعاطفة حارة ، وخيال مجنح ، وأسلوب واضح .

حلب — خليل الهنداوي

دار الآداب تقدم

عاصفة على السكر

بقلم

جان بول سارتر

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

كتاب رائع يتحدث فيه الكاتب الفرنسي الكبير عن الثورة الكوبية التي قادها فيديل كاسترو ، ويفضح خطط الاستعمار الاميركي لخنق اقتصاديات كوبا ،ويصف مختلف الاوضاع السياسية والاجتماعية التي أدت الى نشوب هذه الثورة التي تعتبر من أروع الثورات في تاريخ الشعوب .
كل ذلك باسلوب تحليلي طريف وعميق امتاز به جان بول سارتر ، وروح تحررية تجعل هذا الكاتب العالمي في طليعة المفكرين الاحرار الذين عرفهم تاريخ الفكر والسياسة .

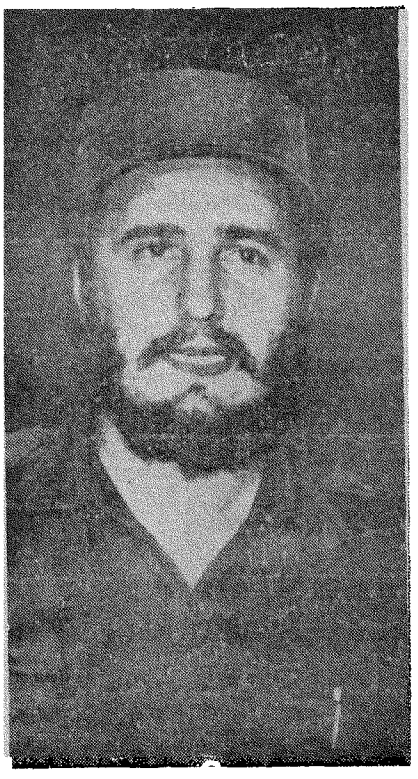

صدر حديثا

الثمن ثلاث ليرات لبنانية